21

من أفغانستان إلى سريلانكا "جنوب آسيا"؟

ليس هناك دولة آسيوية بها كلمة آسيا في اسمها. لم يكن هناك اتحاد جنوب آسيا. لقد كانت مسألة رأي، كما اتضح من قبل، حيث بدأت وانتهت. إذا كانت قد امتدت من كابول إلى كولومبوفلربما كان ذلك فقط لأنها كانت سابقاً بشكل رسمي "بريطانية"، على الرغم من أنهم لم يديروها ككيان واحد. هذه الصفة في حوالي منتصف السبعينات قد تمت إزالتها لمدة ربع قرن على الرغم من أنها لم تمحى بشكل كلى. لم يحل محلها أي شيء بشكل مباشر. كان من الجلي وجود نوع من الفراغ "الجنوب أسيوي" ولكن من يسيطر عليه وبموجب أي شروط كان محل إشكال. على النقيضين فإن شئون أفغانستان وسريلانكا قد تعدت حدودهما. اعتقد البعض أن أفغانستان جزء من الشرق الأوسط وأنها ليست جنوب أسيوية على الإطلاق. لقد كانت مسألة رأي. لم يعد هناك خلاف بأنها وجدت نفسها حبيسة عوالم أوسع.

جماعات كابول

لقد كانت كابول منذ منتصف السبعينات وما بعدها مدينة لم يشعر فيها أحد بأنه آمن في مكانه. سعي الرئيس داوود، بعدما أطاح بابن عمه، الملك، وأنهى النظام الملكي عام 1973، لطلب المساعدة من كل من يمكنهم مساعدته، من موسكو وطهران وغيرهم.

وقبل أن تصبح الدولة متصلة بالعالم الخارجي كانت اتصالاتها الداخلية بحاجة للتغيير. كانت أفغانستان كما عرفها البريطانيون بشكل خاص في السابق صعبة التوحد والتماسك. الطغاة فقط هم من تمكنوا من إداراتها. في 1978 تمت الإطاحة بداوود وقتله. تولي حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني، والذي تشكل سراً في يناير 1965، زمام الأمور. والذي انقسم إلى فصيلين، الخلق والبرجم. الأول تكون بشكل كبير من البشتون والآخر اتجه إلى الطاجيك وهزارة وإلى الأقليات العرقية الأخرى. بدت الخصومات الشخصية مستشريه داخل هذه التجمعات العرقية. أعلن محمد تركي (ولد في 1917)، والذي تخرج في وقت مبكر من جامعة كابول، الجمهورية الديموقراطية الأفغانية وقام بشكل نظري بتوحيد الفصيلين. ولم تغب رمزية استبدال العلم الأخضر بآخر أحمر. وقد تمحور برنامجه في 1978 حول إعداد أفغانستان للعالم الحديث: إصلاح الأراضي، محوالأمية، وحقوق المرأة. وفي عام 1978 قام بتوقيع معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفيتي. عند هذا المنعطف، وعلى الرغم من كونه شيوعي، إلا أنه كان يواجه بالفعل تمرد مفتوح. أعلن العديد من المتمردون عن رابطة إسلامية. وقد زاد الوضع القتال بين الفصيلين. لم يكن من المستطاع الاعتماد علي الجيش. تواجدت الجيوش السوفيتية والمعدات والمستشارين في الدولة بحلول ربيع 1979. كان للجنود الأفغان عادة التسلل بالليل آخذين معهم أسلحتهم.

كابول، موطن النخبة المثقفة في الدولة، كما كان معروف خارجياً، كانت مليئة بالجماعات. قام حفيظ الله آمين، رئيس مجلس الوزراء، بالإطاحة بطارقي وتولي الحكم. لم تستطع أي حكومة في كابول مهما كانت وحشيتها من السيطرة علي دولة كانت أغلبيتها الساحقة ريفية وقبلية. استخدم الغرباء الصورة النمطية للأفغان إذا كانوا موجودين بأنهم مستقلين بشدة (وراثياً). على الرغم من ذلك كان لكل من واشنطن وموسكو وطهران وإسلام آباد (بجانب صلتها ببكين) ودلهي رأي في هذا الأمر. إن الأحداث في إيران قد تنتشر وتمتد إلى أفغانستان بشكل غير مناسب لكلا من الشرق والغرب (ليس لأن موسكو كانت تقع شرقي كابول).

قرر الاتحاد السوفيتي التحرك. بريجنيف رغم سعادته بجائزته الأخيرة الغير متوقعة

وهي جائزة لينين في الآداب لم يفقد في ظل فرحته سيطرته على المسألة. إن نظام الحكم في كابول على الرغم من اختلاله قد أنشأ دولة اشتراكية. إن مسار التاريخ لا يمكن تحديه من قبل مجموعة متداعية من المحاربين الإسلاميين الرجعيين. ومع ذلك فإن جميع المناشدات طلباً للمساعدة قد تم تجاهلها. في أواخر ديسمبر 1979 نجحت القوات السوفيتية في الغزو. كان الاتحاد السوفيتي ببساطة يذهب بالإمبراطورية الروسية إلى مرحلة أبعد. مبدئياً وكدليل على الأخوة جاءت بعض القوات السوفيتية المنتشرة عمداً من جمهوريات آسيا الوسطى. ويبدو أن هذه القوات أصبحت أخوية بشكل زائد وتم سحبها. وثبت أن حفيظ الله أمين كان ضحية هذا الغزو التحرري والذي كان قد دعا له في الظاهر. لقد كانت موسكو دائما تشك في أنه كان يرسل من يستقصي الأوضاع في عواصم العالم مع أنه لا يمكنه فعل ذلك. كان أمين، مثل سعيد، قد قضي فترة دراسته في جامعة سعيد، كولومبيا في نيويورك (بالطبع قبل وجود سعيد). كانت لغته الإنجليزية ممتازة ولكنه لم يجد اللغة الروسية. لا يمكن إنكار كونه ماركسي ولكن ذو طبع أفغاني وبالتحديد كواحد من البشتون. لذلك تم التخلص منه واستبداله بمن هو أكثر مرونة بابراك كرمال (ولد في 1929) والذي جاء مع الحقيبة السوفيتية. كان نجل أحد أبرز الجنرالات في العائلة المالكة ومن جيل أعُجب بالماركسية الغير مشروعة. لقد حاول رأب الصدع مع رجال الدين الإسلامي من خلال إظهار احترامه للمبادئ الإسلامية المقدسة. تم إرسال بعض رجال الدين ليروا بأنفسهم كيف ازدهر الإسلام في الاتحاد السوفيتي، وهي رحلة بحثية تطلبت الاختيار الدقيق للوجهات. لم تكن الوحدات المحدودة التي كانت تمثل وجود القوات الروسية وعددها 100.000 فرد تتوقع مثل هذا النوع من الحروب التي كانت تخوضها. عاجلا أم آجلا افترض بريجنيف وأندروبوف وتشيرنينكوومبدئياً غورباتشوف أنه يمكن هزيمة مجموعة المجاهدين بطريقة أو بأخرى على الرغم من أن التكلفة ستكون باهظة. كان الجيش الأفغاني يحتشد في المنتصف، على نحو عابس وغير مستقر. تم الحفاظ على الحد الأدنى من المعلومات حول أفغانستان داخل الاتحاد السوفيتي لكن الأخبار كانت تتم تنقيتها. كان من الصعب تبين من سيخرج في النهاية منتصراً في هذا الصراع المحير.

لم تكن الولايات المتحدة الأمريكية مستاءة من تعثر الاتحاد السوفيتي في أفغانستان. لقد كانت تخوض فيتناماً خاصة بها. أحياناً كان يبدو أن فخاً قد نُصب لموسكو . من خلال مساعدة أمريكية استطاع المتمردون جعل الحياة صعبة للغاية بالنسبة للحكومة الأفغانية بحيث يشعر الاتحاد السوفيتي بأنه ملزم بالتدخل. ثم عندما تدخل الاتحاد السوفيتي بالفعل سخر منه الغرب لتجاهله سيادة الدولة. اقترحت دول أوروبا الغربية، بالرغم من هلسنكي بأنها لا تزال عرضة لمثل هذا العدوان. كانت أحزابهم الشيوعية تشعر على الأقل بالإحراج بسبب الاتحاد السوفيتي. كانت الولايات المتحدة الأمريكية، المعتادة على السماع من الشرق الأوسط ومن أماكن أخرى حيث أن اللوبي اليهودي كان هو المسيطر على سياستها الخارجية، كانت سعيدة بأن أكثر أنظمة الحكم العربية عداءً للسادات قد أدانت الانتهاك السوفيتي للأراضي الإسلامية. في الأمم المتحدة استنكرت بشدة 108 دولة ما فعله الاتحاد السوفيتي في حين لم تقم 18 دولة بذلك (مع امتناع 18 دولة عن التصويت). وقد تعمق كارتر في التفكير في رد فعل تأديبي مناسب. لقد كان الحصار على الحبوب، والذي اعترض عليه دائماً، يعد سلاحاً. كان بريجين يعرف أنه ليس من المرجح حدوث أي إجراء عسكري أمريكي. لم تستطع قوات الانتشار السريع المكونة من 100.000 فرد التي أسسها كارتر، والتي أُعلن عنها في وقت سابق من عام 1979، من الانتشار في حينها. ثم برز خياراً واضحاً في ظل هذه الظروف وهو مقاطعة دورة الألعاب الأوليمبية. كانت موسكو تنوي أن تجعلها (في 1980) أكبر حدث رياضي في العالم. أثناء الحدث، ضغطت 45 دولة علي لجانهم الأوليمبية الوطنية المستقلة للانسحاب من دورة ألعاب موسكو . لسنا بحاجة للقول بأن هذا التصرف العالمي لم يؤدي إلى الانسحاب السوفيتي من أفغانستان. استمرت الحرب.

الهند: سجادة أنديرا الحمراء

لقد لعبت روسيا وبريطانيا لعبة القرن التاسع عشر الكبرى في أفغانستان. على الرغم من ذلك، في 1979 أصبح كل ذلك من التاريخ. لم تفترض أي حكومة بريطانية أن القوات البريطانية سيكون باستطاعتها أن تقاتل في أفغانستان مرة أخرى. ولكن في حين كانت

أفغانستان في الماضي تمثل معضلة لكتلة واحدة، وهي الهند التي تحكمها بريطانيا، فإنها الآن تؤثر على دولتين متنازعتين. علاوة على ذلك فإن كلا الدولتين، الهند وباكستان، كانتا منهكتين داخلياً بسبب قضايا الهوية والولاء المماثلة. أثرت أفغانستان عليهما. بالنسبة للهند، كانت هناك كشمير في الشمال الغربي وآسام في الشمال الشرقي، جنبا إلى جنب مع قضية التأميل في الجنوب الشرقي (وفي سريلانكا). زادت الأمور تعقيداً مع بحث الأمم والدول عن ذاتها وعن سيادتها.

قامت أنديرا غاندي بتنمية علاقة وثيقة بالاتحاد السوفيتي والذي كان أحد الجوانب الأساسية في سياسة الهند الخارجية. وفي ظل ديموقراطيتها المنضبطة كان الاتحاد السوفيتي على استعداد للمساعدة في العمل الشاق لمحاربة الفقر في الهند. أعلنت غاندي أنها لا تنوي فرض حكم الحزب الواحد لكن هذا التعهد لم يتم الحفاظ عليه. كانت عمليات الحكومة البرلمانية، التي بدأت منذ عام 1947، متوقفة. كان لدي رئيسة الوزراء دائرتها الداخلية من المستشارين كما أصبح نجلها الأصغر سانجاي (ولد عام 1947) مؤثراً جداً. أصبحت وجوه الروسيون مألوفة في العاصمة وفي المدن الهندية الرئيسية. كما انتشرت سلسلة من المكتبات السوفيتية في جميع أنحاء البلاد. وقد ظهرت الرغبة في إعداد الخطط الخمسية بشدة في دلهي. تم تأميم المزيد من الصناعات. لم تكن الهند متوجهة نحو الشيوعية ولكن نوعاً من الرأسمالية المنظمة كان يسود أكثر، آخذاً الهند بعيداً عن الولايات المتحدة الأمريكية.إن توجه نيكسون نحو باكستان وتصرفه إزاء أزمة بنجلاديش قد أثار استياء الرأي الهندي. ساعد وصول رئيس ديموقراطي في تحسين العلاقات نوعاً ما، على الرغم من أنه من المزعج حقيقة أن الأمريكيين كانوا أكثر اهتماما بزيارة الصين عن الهند. كان هناك عامل آخر أيضاً. في عام 1974 نفذت الهند انفجاراً نوويا ناجحاً في صحراء راجستان. لقد هز هذا الانفجار باكستان بشكل حرفي ومجازي. كان هناك إنكار هندي بأن تصبح الدولة ذات أسلحة نووية. وبرغم ذلك فقد تم إرسال رسالة إلى الصين وباكستان بشكل خاص وإلى العالم بشكل عام. ربما تكون الهند دولة فقيرة ولكنها قد تصبح من الدول صاحبة القوة العظمي. خلال هذه السنوات كانت حكومة دلهي منشغلة

في تنظيم حدودها الشمال شرقية المطلة عل الصين وبورما مع أخذ عامل الأمن في الاعتبار. ومع ذلك وعلى الرغم من موقفها الإيجابي تجاه الاتحاد السوفيتي، ظلت الهند جزء من هذا العالم الناطق بالإنجليزية حيث وجدت كيانها السياسي/ الثقافي في رابطة الأمم. حافظت الهند على عضويتها على أساس عملي أكثر منه عاطفي. لقد أخلت الطوارئ بالمبادئ التي كانت تطمح إليها رابطة الأمم لكن لم يكن هناك خرق. ومع ذلك فلم تكن الحضارة الغربية، على غرار سابقتها البريطانية، والتي اعتدلت مؤسسياً في 1947، في جميع الأوقات جزءاً لا يتجزأ من الهوية الهندية. اعتاد الهنود، كما قبل، على أن يكونوا محكومين لعدة قرون. وفي ظل الظروف الراهنة، كانت هذه ربما الحقيقة الأكثر وضوحاً. عام 1974 تقبلت أنديرا غاندي علناً فكرة أن العالم يجد الهند صعبة الفهم: لقد كانت عميقة جداً متناقضة ومتنوعة بحيث يصعب على المرء فهمها. إن حريتها في التعبير عن الرأي، بشكل نسبي، تعني أن وحدتها الأساسية كانت مفقودة. وبعد سنوات قليلة لم تكن حرية التعبير موجودة بشكل واضح. وفي السجن كتب ج. ب. نارايان، وهو الصوت المحنك لفقراء الريف، أنه لم يؤمن في أي وقت أن السيدة غاندي كانت ديموقراطية. ومن خلال التوجه والإدانة كانت السيدة غاندي ديكتاتوره. كان الاتحاد السوفيتي يدعمها إلى أقصي درجة. ولكن سيأتي الوقت عندما يتركها الروسيون في مزبلة التاريخ ويضعون رجلهم الخاص بدلاً منها. يا للعار! قالها بتعال، ستصبح الهند باكستان أو بنجلاديش أخرى. على الرغم من ذلك فإن الناخبون الهنديون في مارس 1977 هم من تركوا أنديرا في مزبلة التاريخ وليس الاتحاد السوفيتي. في يناير قامت بإطلاق سراح معارضيها من السجون كما علقت الحظر المفروض على الأحزاب السياسية. توحد معارضيها، كبار السن، من جديد مكونين الجاناتا وهو تحالف من أربعة أحزاب وحظوا على أغلبية ساحقة في مجلس شيوخ أنديرا وبذلك أنهوا ثلاثون عاماً من حكم الحزب الذي لم يقاطع سلطته أحد. بدأت الهند بداية جديدة تحت حكم الثمانيني موراجي ديساي بمساعدة، إذا صحت هذه الكلمة، زملائه الوزاريين من مختلف الاتجاهات. لقد انشغلوا بتنصيب أنفسهم للحفاظ علي رئيس الوزراء في منصبه مع إبقاء نجله يعمل في ظل حكمه، وكانت تلك هي الرسالة الوحيدة الواضحة. شيء واحد فقط بدا جلياً: القوة البارزة للقومية الهندوسية

التي كانت تمثلها جماعة سانا سينغ داخل الائتلاف. وما وصف بأنه الفرصة الأخيرة للديمقراطية لم يدم طويلاً. قام الرئيس الهندي بإحلال البرلمان عندما لم يجد من يعينه رئيساً للوزراء وأمر بإجراء انتخابات جديدة في يناير 1980. تمت إعادة تدوير محتويات صندوق مهملات نارايان. فازت أنديرا غاندي وحزبها بأغلبية الثلثين. هذه المرة ستتشكل حكومة تعمل بالفعل على هذا الأساس. ربما كانت الهند في واقع الأمر بحاجة لإدارة السيدة غاندي. تمت إعادة الانتخابات للمرة الأولى لصالح نجلها سانجاي. وبدت مسألة الخلافة مؤكدة.

أثناء إجراء الانتخابات إحتلت أخبار الغزو السوفيتي لأفغانستان عناوين الصحف. قامت حكومة جاناتا بتهميش اتصالاتها السوفيتية نوعا ما ولكنها أبقت على معاهدة الصداقة. على الرغم من ذلك فإنها لم تقم بتطوير أي سياسة خاصة بشأن أفغانستان. كان احتمال إدانة حكومة غاندي الجديدة للتصرف السوفيتي ضعيفاً. بعدما أجري كارتر مكالمة تهنئة لها، وجدها الرئيس الأمريكي مهذبة ولكن باردة. في الأمم المتحدة بدا أن كوبا كانت أكثر تحفظاً من الهند من حيث التأييد الشعبي للتحرك السوفيتي في أفغانستان. وبشكل خاص وبرغم انعدام التأثير كانت دلهي تحث موسكو على الانسحاب. لقد عرف صناع السياسة في الهند جيداً وعلى مدي القرون أن الغزاة من الشمال الغربي هم من صنعوا الهوية متعددة الطبقات للهند. هل كانت أفغانستان تمهيداً لغزوآخر؟

لقد كان ذلك صعب المنال ولكن لم تكن أكثر الحكومات ميلاً للتعاطف متأكده من ذلك. ربما كان من المتصور، لكن ليس أكثر من مجرد تصور، أنه في ظل هذه الظروف ستقوم الهند وباكستان وبنجلاديش معاً بالدفاع عن هذا الفضاء المربك المسمى بـ "جنوب آسيا". في الوقت الراهن ومهما كانت التحفظات لم ترى دلهي سوى العيوب في أي نصر قد يأتي في نهاية المطاف لصالح المجاهدين. في ظل حكم فخر الدين علي أحمد (1974-1977) حظيت الهند برئيسها المسلم الثاني. وكان تعيينه إشارة بأن للمسلمين مكان واضح في النظام السياسي الهندي. لم ينس العالم قط أن عدد المسلمين في الهند كان أكثر من عددهم في باكستان. إن أصداء نجاة أفغانستان الإسلامية ربما تكون مثيرة للقلق على الأقل داخل باكستان.

باكستان: حكام مختلفون واتجاهات مختلفة

تم قطع العلاقات الدبلوماسية بين باكستان وأفغانستان في 1973 ولم يتم إعادتها حتى 1977. كلتا الحكومتين، اللتين لا تخلوان من العدل، اتهمت الأخرى بإيواء المعارضين والتحريض على العصيان. كانت القضايا الحدودية بين البلدين مستشريه منذ بداية تأسيس باكستان. وكانت أكثر الأماكن اشتعالاً هي بلوشستان، في الغرب، وهي جزء طالما طالبت به أفغانستان. تم نشر الجيش الباكستاني لمحاربة التمرد هناك في منتصف السبعينات. لم يكن من السهل أن تتصالح المعارضة في هذه المنطقة المتنوعة ثقافياً. إن جعل باكستان دولة فيدرالية حقيقية لتعبر عن كلا من وحدتها وتنوعها كان فقط في البداية. الدستور الجديد الذي تم إقراره في 1973 قد مهد الطريق ولكن الإنجازات كانت مسألة أخرى. كانت المهام التي تواجه بوتو ضخمه. لقد فشل في التوجه بالتأييد الشعبي الذي كان يحظى به نحو نظام برلماني فعال وذو أحزاب سياسية قابلة للاستمرار لا تقوم علي أساس التحيز والمحسوبية. البعض كان يري وجهي بوتو: التقدمي خريج أكسفورد والسلفي الطاغية الإقطاعي. لم يستطع التوفيق بين هذين الصفتين لتجميل صورته. الوصول لهذه الصورة شيء مغري ولكنه سطحي. أما باكستان ككل فكان لها وجهان أو بالأحرى العديد من الوجوه. إن عمليات الإحلال التي حدثت في 1947 والتي أصبحت مرتبطة بخسارة بنجلاديش تركت مكانا إشكالياً في العالم. كان لدي بوتو احتمال ضئيل بأن يجعل لباكستان صوتا هاما في جنوب أو جنوب شرق آسيا. كان يتوجه غرباً ولكن ليس إلى الغرب. لقد أخرج باكستان من الكومنولث في 1972، كانت عضويتها ستنتهي في وقت لاحق. وبشكل أكثر تحديداً تمثلت مناهضته للغرب في انسحاب بلاده من منظمة حلف جنوب شرق آسيا. وقد بدا أن محور مستقبل باكستان سيكون ذوطابع إسلامي. المسلمين فقط هم من تولوا الرئاسة أو رئاسة الوزراء. وعلي الدولة تيسير المعيشة للمسلمين. مُنحت الأقليات، وعلي رأسها المسيحية، حقها في العبادة ولكنهم تعرضوا لضغط اجتماعي داخل الإطار الإسلامي الذي يغلفهم. لاقي هذا التحزب المزدهر تأكيداً عندما عقد مؤتمر الدول الإسلامية جلسته لعام 1974 في لاهور. لقد جاء بياسر عرفات

والملك فيصل بن عبد العزيز ملك السعودية والرئيس السادات والرئيس الأسد وبومدين معاً. وبشكل مدهش، متحدثين في ملعب القذافي الجديد في المدينة، أعلن الرئيس الليبي أن موارد بلاده هي موارد باكستان. حتى لوبدا ذلك غير دقيق، فقد تم تحديد مسار باكستاني. هذا المسار الذي من شأنه أن يؤدي بباكستان إلى إنتاج السلاح النووي "القنبلة الإسلامية" (وقد لوحظ أن الهندوس والمسيحيين وربما اليهود كان لديهم مثل هذه القنابل). تلخصت المسألة علي وجه التحديد في أنه بعد 1971 كانت باكستان بحاجة إلى درع نووي ليحميها من جارتها الأكبر. أما الولايات المتحدة الأمريكية والتي شعرت بأن ميلها نحو باكستان لاقي القليل من الاستحسان فقد حاولت باستخدام سياسة العصا والجزرة، ولكن دون جدوى، إحباط المشروع النووي الباكستاني. وقد تواجد جنباً إلى جنب التوجه الباكستاني الشرق أوسطي/ الإسلامي المزدهر مع تعزيز العلاقات القائمة مع الصين. فهي لم تكن فقط أكبر مورد أسلحة لإسلام آباد ولكن كلتا الدولتين وافقتا على إنشاء طريق سريع يربطهم معا عبر ممر خونجيراب.

بحلول عام 1978 عندما تم الانتهاء من طريق كاراكورام السريع، لم يعد بوتوفي منصبه ووصلت تجربة الديموقراطية إلى نهايتها. وبعدها بعام تم إعدامه بعدما أدين بمسئوليته عن وفاة خصم له. قام الجنرال ضياء الحق (ولد عام 1922)، رئيس أركان الجيش الباكستاني، بانقلاب عسكري ضد بوتوفي يوليو1977 وتمت العملية تحت اسم رمزي وهو عملية فيربلاي. سرعان ما أصبح واضحاً أن ما حدث كان أكثر من محاولة لاستعادة النظام (حيث حدثت الكثير من الفوضى فيما بعد) والإعداد لانتخابات نزيهة. ما حدث إنما دل على بداية فترة خطيرة من الحكم العسكري. احتفظ ضياء، الذي أعرب عن تشككه من مدي ملائمة الديموقراطية الغربية لباكستان، بمنصبه العسكري وأضاف إليه بعد 1978 منصب الرئيس. لقد استمر في الحكم لفترة أطول مما اعتقد الكثيرون. وقد تمكن من تحقيق تأييد واسع لحكمه في 1985 كما قام برفع الأحكام العرفية في هذا العام مع استمرار تعزيز سلطاته.

عرف ضياء عوالم مختلفة. لقد ولد في شرق البنجاب وتلقي تعليمه في جامعة سانت ستيفن بدلهي (والتي أخرجت في عهد فخر الدين علي أحمد، كما لاحظنا، رئيس مسلم للهند)، لقد جاء من طبقة متوسطة ذو خلفية عسكرية. خدمته العسكرية وقت الحرب في الجيش الهندي (البريطاني) كانت في بورما والملايووجاوة. في 1947 عبرت عائلته الحدود من جالاندهار، مسقط رأسه في الهند، وصولاً إلى بيشاور في باكستان. ومع خدمته في الجيش الباكستاني الجديد تدرج ضياء في الرتب. عندما انتقل إلى الأردن في 1969 لتدريب الجيش الأردني، ساعد في إدارة عمليات الملك حسين ضد منظمة التحرير الفلسطينية. وقد بدا توجه باكستان نحو العالم العربي مؤكداً، حيث كان الكثير من العمال الباكستانيون وخاصة من البنجاب يعملون في دول الخليج. داخلياً، كان ضياء مناور ماهر حيث كان يعين بعض العسكريين في الوظائف المدنية الرئيسية مما عزز من مكانة الجيش المركزية في الدولة. عندما لاحظ ريجان أن ضياء كان رجلاً جيداً وقع في غرامه على الفور في أو ل لقاء معه في ديسمبر 1982. خلفية ضياء جعلته مستعداً للميل نحو الأسلمة. القناعة الشخصية والإستراتيجية السياسية بالنسبة لضياء كانتا هما المفتاح لاستقرار باكستان. على الرغم من ذلك كانت الأسلمة عملية طويلة ومثيرة للجدل. لا يمكن تنفيذها على الفور. حيث ظلت بعض العناصر التي تلقت تعليماً غربياً في المجتمع متعلقة بالقانون البريطاني الموروث. كانت الإشكالية تتمحور في الاتفاق على ماهية النظام الإسلامي. تفاقم هذا الوضع أدي إلى الخلاف بين تفسيرات الشيعة (الأقلية) وتفسيرات السنة (الأغلبية). وظهرت على السطح الاختلافات في الممارسات الدينية بين التزمت الصارم من ناحية والاحتفالات في الأضرحة الصوفية من ناحية أخرى. وفي نهاية الأمر وإرضاءً للأرثوذكسية، نجحت حملة تصنيف الطائفة الأحمدية بأنها غير مسلمة. في ظل هذه الأحداث وجد المسيحيين أنفسهم تحت خطر العقوبة الشديدة إذا فُسرت أي ملاحظات لهم حول "محمد" بأنها ازدراء.

في الوقت الذي قتل فيه ضياء في حادث تحطم طائرة غامض في 1988، كان الأثر التراكمي للعملية التي قام بتسريعها كبير. بالنسبة للعالم الخارجي، كانت باكستان دولة إسلامية أكثر مما كانت عليه في 1977، على الرغم من أن ماهية هذه الدولة الإسلامية كان

موضع شك. وجد العالم الغربي الذي بدا مشغولاً بحقوق المرأة أن المرأة لها مفهوماً آخر في باكستان. لم يتفق الجميع أن الحكومة الرئاسية (على نظام ضياء) تشكلت على الشكل الأقرب للإسلام أو أن الأحزاب السياسية غير إسلامية، كلا الاتجاهين ظهرا في بداية الثمانينات في المجلس الاستشاري للعقيدة الإسلامية. لذلك ربما كان سعي النظام للوحدة المضللة من خلال الإسلام يكشف فقط عن أوجه التصدع في الإسلام نفسه. كانت التيارات المتعارضة صعبة التحديد. كانت أوجه التصدع في الإسلام جزء لا يتجزأ من التحزبات العرقية واللغوية والثقافية. وفي هذا الشأن، لم تنجح الأسلمة في حد ذاتها في خلق وحدة قومية. كان هناك ادعاء مستمر بأن باكستان لا تزال خاضعة للبنجاب ولكن سواء صدر هذا الإدعاء من السند (موطن الشهيد بوتو) أو بلوشستان أو أي مكان أخر، فلم يعيره النقاد اهتماماً كبيراً. كم عدد القوميات داخل دولة باكستان؟ لم تكن هناك إجابة واضحة. من يذهب لزيارة كراتشي، التي لم تعد العاصمة ولكنها لا تزال الميناء الرئيسي والمركز التجاري للدولة، بعدد سكان أكثر عشرين مرة من النصف مليون الذي كانوا عليه في 1947، سيجد مدينة تقاوم من أجل المواجهة. احتلت مجموعات عرقية مختلفة عدة مناطق واحتكرت مهن معينة. انتشر الإدمان والاتجار في المخدرات. تواجدت العصابات المسلحة بالشوارع. وكان من الممكن انهيار القانون والنظام في أي لحظة.

لعبت أفغانستان دوراً في هذا الموقف بطرق متعددة. تدفق اللاجئين بسبب القتال إلى باكستان، اختلفت التقديرات ولكن ربما اقترب العدد من بضعة ملايين. أصبحت باكستان بدورها القاعدة التي انطلقت منها بعض الجماعات الأفغانية (التي أدارها عقل واحد ونفذها العديدون) لتنفيذ عملياتها عبر الحدود. ظهر ما يمكن تسميته سلسلة متصلة من الصراعات حيث تداخلت القضايا الداخلية في الصراع الأوسع. سمح كارتر بإمدادات الأسلحة لمقاتلي المقاومة في أفغانستان، والتي جاءت من أصول شرق أوروبية حتى تبدو أنها جاءت من المنشقين عن الجيش الأفغاني. كان التعاون مع جهاز المخابرات الباكستاني هاماً من أجل فاعلية هذا التواصل. كان خليفة كارتر أقل خوفاً، منذ 1981، والأسلحة التي وصلت أفغانستان كانت شديدة التطور. والأهم من ذلك هو أن

الإدارات الأمريكية المتعاقبة اتفقت على منح باكستان المزيد من الدعم المالي. وقد دعم ذلك نظام حكم ضياء علي الرغم من أنه لم يمنع المستوي العالي من الإنفاق العسكري الذي أخل باقتصاد البلد ودفع بها إلى أزمة كبيرة. وفيما يتعلق بأفغانستان، حاول ضياء التنسيق مع العالم الإسلامي لدعم المقاومة (كانت السعودية ممولاً كبيراً جداً). ولكنه لم يعش ليرى نهاية اللعبة السوفيتية في الدولة.

بعد وفاته حلت بينظير بوتومحل ضياء (ولدت 1953). خاضت مجموعتين كبيرتين الانتخابات وفاز حزب الشعب الباكستاني التابع لها بأكبر عدد من المقاعد، ولكن ليس الأغلبية. ومنذ البداية وعلى الرغم من أن الجيش تراجع رسمياً فإن العداء تجاهها كان بالكاد مُقَنّعاً. لو كانت حكومتها قد أظهرت أنها ذات كفاءة وغير فاسدة لكان موقع بينظير أقوي، ولكنها لم تكن كذلك. كانت قاعدتها القومية ضعيفة (كان لحزبها الأغلبية فقط في السند والشمال الغربي). في 1989 لم يبدو مستقبلها مشرقاً، كما تأكد في وقت لاحق. وعلى نطاق أوسع، أوضح موقفها الشخصي مفارقات بلدها. قام والدها بتعليمها تعليماً غربياً (قضت بجامعة هارفارد وأكسفورد معاً 8 سنوات، 1969–1977). كانت الإنجليزية لغتها الأولي وبجانبها الأردية. لم تستطع أي من هذه الجامعات أن تحد من غطرستها الزائدة التي كانت متأصلة فيها. أين كانت هي بالمنزل؟ لقد وجدت نفسها أول امرأة تتولي رئاسة الوزراء في دولة دُفعت للاتجاه الإسلامي. كانت لها قاعدة سياسية قوية في بلد أجدادها "السند"، ولكن يبدو أنها كانت بالكاد تتكلم السندية. لقد كانت أول سياسية تتولي منصباً بدون أي ذكرى شخصية عن الهند البريطانية. جميع هذه الحقائق كانت ذات مغزى ولكنها لم تترجم إلى استراتيجية واضحة.

الهند: من الأم إلى الابن

إذا كانت سيطرة بوتو على السلطة في 1989 ضعيفة، مثلها مثل راجيف غاندي (ولد 1944)، لكانت جرفتها الانتخابات العامة في هذه السنة. قبل ذلك بخمس سنوات، حظي الكونجرس تحت قيادته بنصر انتخابي كبير اقترب من الأغلبية المطلقة لأصوات الناخبين. لوكانت والدته هي من قادت هذه العملية لما حظي بمثل هذا النصر. اغتيلت

والدته برصاص الحرس في 31 أكتوبر 1984. وبطبيعة الحال حصل على أصوات متعاطفة. لكن شبابه كان موضع إعجاب بجانب التحضر الذي لابد وأن يرافق طيار سابق. أُرسل إلى جامعة جده، كامبريدج، لدراسة الهندسة إلا أنه لم يكن علي قدر من الاجتهاد. كانت زوجته والتي التقي بها هناك إيطالية. وكان ذلك أيضا يعتبر شيئاً حديثاً. وعلى افتراض أن راجيف سانجاي سيخلف والدته، فقد ظل راجيف بمنأى عن السياسة. ولكن الخلافة أصبحت من نصيبه عندما قتل سانجاي في حادث تحطم طائرة. وفي منصبه قام وبحذر شديد بفتح الاقتصاد الهندي المقيد بالتنظيم، مشاركاً وجهة النظر القائلة أن الاقتصاد كان محاطاً بروتين واضح. ومما أثار الاستياء في دلهي أنه حتى باكستان كانت تحقق معدلات عالية من النمو الاقتصادي في هذه المرحلة. بدأت النمور الآسيوية الأخرى في الصعود والظهور. لقد حان الوقت للتغيير وأرادت الطبقة الوسطي بعض التحرر، والتي بلغت مائة مليون (إلا أنها تمثل فقط ثمن عدد السكان). المشاريع الغامضة المشبوهة كانت هي ما أنجزه. هاجم وزير مالية راجيف، سينغ، بعض المؤسسات الصناعية والتجارية للتهرب من الضرائب. بعدما انتقل إلى وزارة الدفاع، رفض التخلي عن تحقيقاته. اقتربت أحد هذه التحقيقات من رئيس الوزراء نفسه، وكشف النقاب عن الرشاوي التي يدفعها متعهد شركة أسلحة بوفورز السويدية. استقال سينغ وتضررت مكانة غاندي. أكدت خسائر الانتخابات فكرة أن محور تركيز الحكومة كان خاطئاً. كان سينغ هو الشخصية البارزة في هزيمة غاندي في انتخابات 1989.

إن التخطيط الذي تم تنفيذه في العقود الأولي بعد الاستقلال ارتبط ارتباطاً وثيقاً ببناء الأمة وبالسياسة القائمة على التواجد بالكونجرس. وعلى الرغم من الانتصار الانتخابي في 1984، فلم يكن الكونجرس على سابق عهده، سواء مركزياً أو في العديد من الدول. كل هذه العناصر تزامنت في صعوبتها. وتعالت الأصوات التي زادت شعبيتها وحدتها بأن الهند أصبحت ولاية هندوسية. وكانت علمانية ما بعد الاستقلال قد أفقدت الدولة روحها وجعلتها ضعيفة وهشة. إن استعادة رام مسقط رأس أيوديا من محتليه المسلمين كان هو الهدف الأساسي لهذه الحركة.

ثم ظهرت قضية أخرى. كان الحراس الشخصيين لأنديرا غاندي كلاهما من السيخ. وكانت قضية السيخ في السنوات القليلة السابقة وخاصة في 1984 قد وصلت لمرحلة متطورة. البنجاب، والتي كانت مقسمة في حد ذاتها بين البلدين في 1947، تم تقسيمها أكثر في 1966 بواسطة حكومة دلهي إلى ثلاثة ولايات: البنجاب وهاريانا وهيماشال براديش. هذه البنجاب الصغيرة (التي تتحدث البنجابية) كانت أغلبيتها من السيخ وهاريانا كانت أغلبيتها من الهندوس. وكانت مستويات المعيشة في الأولي أعلي بكثير من الأخيرة. لقد تشاركوا العاصمة في شانديغار (والتي كانت تدار مركزياً). كانت شانديغار مسألة رمزية. عندما ضاعت لاهور اضطرت الهند لخلق مدينة جديدة تنافسها. تم توظيف معماريين أوروبيين للقيام بهذه المهمة، وكان أكثرهم شهرة "لوكوربيزييه". تطلع نهروفي شانديغار أن تصبح هنداً متطلعة للمستقبل وغير مقيدة بالماضي.

على الرغم من ذلك، لم يكن من السهل عدم التقيد بالماضي. أطلق حزب السيخ، أكالي دال، دعوات للانفصال ومن بينها دعوات لأن تصبح شانديغار عاصمة البنجاب فقط. تولي الحزب السلطة في البنجاب في 1977. أصبح زيل سينغ رئيس الهند الأول من السيخ في 1982 لكن ذلك لم يؤثر كثيراً في تهدية سخط السيخ. أصبح جارنيل سينغ بندرا نويل متطرفاً، وقد كان مدعوماً من الكونجرس ليواجه زعيم سيخي آخر. في بداية 1984 سيطر هو وأتباعه المسلحين على الحرم المقدس للمعهد الذهبي في أمريتسار. سيرحلون فقط عندما تتعهد دلهي باستقلال البنجاب. أصبح الوضع شديد التأزم ولكن في يونيوو تحت اسم "عملية بلوستار" تحركت الأسلحة الثقيلة للجيش الهندي. وتم انتهاك مقر سلطة السيخ. قتل بندرا نويل وأتباعه كما قتل آلاف أخرين. لقد كان استعراضاً وحشياً للقوة أكثر مما فعل الجنرال البريطاني داير أيضاً في أمريستار في 1919. رأي بعض المراقبين، والذين لاحظوا إقالة شخصيات بارزة أخرى في كشمير وأندرا براديش، أن ما حدث في البنجاب ليس إلا إشارة علي عزم السيدة غاندي على إنهاء الانفصال في الهند إلى الأبد (لقد قامت بدورها بإرسال رسالة وحدة واضحة للبرلمان الهندي، لوك سابها، عندما حظت بمقعد جنوب الهند الذي أُنتخب له واستحقته أكثر من أحد أفراد عائلتها التي

تعيش في قلب الشمال). إن أم الشعب، كما وصف راجيف والدته، قد وقّعت على مذكرة وفاتها بشنها معركة "بلوستار". وتلا ذلك المزيد من العنف تجاه السيخ في دلهي حيث فقدت الحكومة السيطرة. وكان تأثير هذه الأحداث طويل الأمد. وقّع راجيف اتفاقية البنجاب في 1985 والتي تعهدت بانتقال شنديغار إلى البنجاب. ومع ذلك فإن زعيم السيخ الذي وُقعت معه هذه الاتفاقية تم اغتياله بعد ذلك بوقت قصير. وتم تأجيل عملية الانتقال. تم فرض الحكم الرئاسي على البنجاب في مايو1987 وحُكمت الدولة بشكل مستبد. كان موقعها الحدودي، في نظر دلهي، يشدد على أهمية القبضة الأمنية الحازمة. وفي الواقع قامت الهند بممارسات عسكرية كبيرة في 1986 للتأكيد على موقعها المُطل على باكستان. ومع ذلك استمرت الاضطرابات والاعتقالات، كما استمرت في كشمير، حيث لم يكن الاضطراب بعيداً عن السطح. كانت الهند وباكستان لاتزال بعيدة عن هذه المسألة. وقد توازي تحرر غاندي المتواضع مع بعض الإصلاحات في علاقته بالولايات المتحدة الأمريكية. لقد عرفوا والدته بصفة التغطرس ولكن ريجان ظن أن ذلك لكونها خجولة وصغيرة. بدا راجيف مألوفاً أكثر. وقام بأول زيارة رسمية في منتصف 1985. مخاطباً الكونجرس، فقد شدد على الديموقراطية التي تربط الولايات المتحدة الأمريكية بالهند، لكنه لم يوضح نتائج ذلك. وكان لزيارة أخرى بعد عامين أثر إيجابي أيضاً. ولكن هذه المودة الواضحة لم تعنِ أن الهند قد تراجعت عن اتفاقية الصداقة التي تربطها بالاتحاد السوفيتي كما لم تعنِ أن الولايات المتحدة تتخلى عن باكستان. إنما كانت تعني أن كلا الدولتين أرادت التخفيف من حدة الخلاف. ومع ذلك فإن عام 1989 لم يشهد التسوية النهائية بين الهند وباكستان. ربما باستطاعة الانتخابات التي تجري بين اثنين من رؤساء الوزارة الشباب، الذين لا يتمتعون بأي إرث تاريخي، أن تجعل الفصل ممكناً. اجتمع راجيف وبينظير بشكل ودي في إسلام آباد في ديسمبر 1989. قدمت ملاحظات حول التعاون الثقافي ووافق كلا من رؤساء الوزارة على عدم مهاجمة المنشئات النووية للدولة الأخرى. ربما يذهب كلا الزعيمين إلى ما هو أبعد من ذلك إذا كان هناك المزيد من الوقت، لكن الوضع ليس كذلك.

اجتماع إسلام آباد المشار إليه لم يكن متعلق بكلا الجانبين. بل كان تجمع لرابطة جنوب آسيا للتعاون الإقليمي التي تأسست في دكا في ديسمبر 1985. تأسس المقر الرئيسي لهذه المجموعة المكونة من سبع ولايات-الهند وباكستان وسريلانكا وبنجلاديش ونيبال وبوتان وجزر المالديف-في كاتماندو عام 1987. وقد بدا ذلك تأكيداً واعداً بهوية جنوب آسيوية في العالم، والهند في قلبها. أدرك جميع المعنيون أنه بموجب هذه الهوية المزعومة فإنه لا تزال هناك قضايا ثنائية معلقة. لم تكن فقط مسألة الهند/ باكستان. فعلي سبيل المثال أدت الاضطرابات في جزر المالديف إلى تدخل الهند في 1988. كانت هناك بعض الاضطرابات في الولايات الشرقية الهندية في أعقاب استقلال بنجلاديش والتي استمرت في توريط دلهي ودكا. أدت محاولة النشطاء الذين كانوا يريدون تحويل منطقة متحدثة بالنيبالية في غرب البنغال إلى ولاية جوركالاند إلى توتر العلاقات بين الهند ونيبال.

ومع ذلك فإن أكثر العلاقات تعقداً كانت بين الهند وسريلانكا. كانت جبهة نمور تحرير التاميل إيلام الأكثر تشددا من بين مجموعات التاميل على الجزيرة. لقد أرادوا استقلالاً غير مشروط في المناطق الشمالية والشرقية لشعبهم (إيلام). وحسب ما قاله رئيس سريلانكا في يونيو 1984 فقد أصبح الموقف مشابهاً لما كان عليه في إيرلندا الشمالية، وذلك كما رأي رونالد ريجان. رأي شعب التاميل نفسه أقلية مهمشة في سريلانكا السنهالية. وجد سكان جزر التاميل الكثير من الدعم والتعاطف من تاميل نادو وبالطبع من التاميليين حول العالم. لم يكن باستطاعة غاندي عدم التحيز ولكن التدخل كان محفوفاً بالمخاطر. حدث قتال عنيف. وبعد فشل المحاولات في التوصل للسلام، عقدت الهند وسريلانكا اتفاقاً في كولومبو في يوليو1987. بدا الأمر بسيطاً. سينسحب الجيش السريلانكي إلى الجنوب ويبقي في ثكناته. ستدخل قوات حفظ السلام الهندية جافنا لنزع سلاح مقاتلي التاميل (الذين كانوا من المفترض أن يمتثلوا لذلك طواعية). ولكن ما حدث هو أن القوات الهندية التي تم إرسالها بأعداد كبيرة وجدت نفسها منخرطة في صراع دموي مع النمور. ظلت المعركة مستمرة بعدما استقال راجيف من منصبه. وكان خليفته هو من قام بسحب القوات الهندية بعد أشهر قليلة. كان هناك مخرج واحد أخير من

هذا التورط الهندي الغير ناجح. اغتيل غاندي في مايو 1991 علي يد انتحاري تاميلي (كما اغتيل رئيس سريلانكا بعدها بعامين). واستمر الصراع الداخلي السريلانكي.

خلاصة القول، كان الشعور بأن جنوب آسيا أصبحت مميزة في العالم، تلك التي امتدت من شمال غرب باكستان، وربما أفغانستان، إلى جزر المالديف في المحيط الهندي، لا يزال غير مكتمل. كان السؤال الغالب، الذي سبق أي رغبة في منطقة أوسع، هو هل ستتمكن الدول القائمة من الاستقرار قومياً وديموقراطياً. إن وضع الهند في حد ذاته هو ما سيحدد مكانتها في العالم. ستكون هناك إجابة كشميرية مختلفة في مدينة سريناجار عن تلك الموجودة في مدينة جامو، وستكون هناك إجابات مختلفة في أمريستار وبيهار وستكون هناك إجابات مختلفة أيضاً في الدول التي بلغ فيها معدل الثقافة 90٪ عن تلك المناطق التي يكاد يكون فيها معدل الثقافة 50٪. ستكون هناك ردود مختلفة تقدمها النخبة العالمية للهند عن تلك التي يقدمها ملايين الهنود الذين يمكثون في منازلهم. إن التنوع الشديد الذي كانت عليه الهند هو عالم بحد ذاته.